الأسس النفسية لعملية الخلق

بقلم محمود أمين العالم
ليسانسيه فى الآداب

تعزى الجدة فى مجال النشاط النفسانى إلى مظهرين من مظاهر هذا النشاط : أحدهما ذهنى ، وهو التخيل الإبداعى ؛ والثانى حركىّ وهو الإرادة . فالتخيل الإبداعى هو الملكة الخلاقة فى المجال الذهنى ، كما أن الإرادة هى الملكة الخلاّقة فى مجال الحركات . وهما يتميزان — إلى جانب عنصر الجدة — بأنهما ذاتيان و بأن لكليهما طابعاً غائياً[1] . غير أننا سنقصر هذه الدراسة على الخلق فى المجال الذهنى فحسب. وسنحاول أن نبين حدود الجدّة فى الخلق النفسى ثم نميز بين المراحل المختلفة التى تجتازها عملية الخلق ثم نعرض للعوامل الفعالة أو الشروط الملائمة لتحقق هذه العملية، وللأشكال التى تتحقق فيها ، باحثين فى الأسس التى تقوم عليها الأشكال المختلفة للخلق النفسى على ضوء ماستنتهى إليه من نتائج فى الخطوات السابقة .

حدود الخلق النفسى : قلنا إن التخيل الإبداعي أو ملكة الخلق النفسى ذات طابع ذاتى ، أى أن اتجاه نشاطها يكون من الداخل إلى الخارج أى نحو الموضوع الذى تستهدفه . فهى لا تستقبل موضوعاتها من الخارج ، بل إن « العالم الداخلى هو المنظِّم لها[2] » على حد تعبير ريبو Ribot . فكثير من الآلام والأمراض فى المقدور إحداثها بتأثير من المخيلة وحدها ، بل فى مقدور بعض الأفراد الإسراع أو الإبطاء من دقات القلب بمجرد تأثير تصور ذهنى حاد مستمر . ونحن نعرف تأثير الإيحاء

(١) هناك مميزات أخرى وعوامل مشابهة بينهما يمكن مراجعتها فى
Dumas : Traité de psychologie. Tome II Livre Premier. chap. VI P 434-436.
Ribot: Essai sur l'imagination créatrice: sixième éd. P. 6-8.

(٢) Ribot: Ibid: p. 7.

فى علاج كثير من الأمراض أو فى إثارة كثير من الأمراض أيضاً ، كذلك النوع من الشلل الذى وصفه رينولدز Reynolds وعرض له شاركو Charcot ومدرسته من بعده باسم الشلل النفسى . ونلاحظ فى هذه الظواهر المختلفة للخلق النفسى أن موضوع الخلق هو الكائن الحى نفسه أى أن موضوع الخلق لم ينفصل عن خالقه . ولكن هذه الصور من الخلق بسيطة للغاية لو قورنت بالتعبيرات الكبرى للتخيل الإبداعى التى تبلغ درجة كبيرة من التعقيد . كالأشكال المختلفة للفن وللنظريات العلمية والمذاهب الفلسفية والابتكارات العملية . ولكن ... هل الخلق النفسى محدود بحدود عملية التخيل فحسب أم أنه يمتد إلى غيرها من العمليات النفسية البنائية ؟ لو خرجنا قليلاً من النطاق العلمى لصادفنا كثيراً من المذاهب والنظريات التى تذهب إلى أن الخلق هو المقوم لكل العمليات النفسية . فالفكر نفسه خلق محض مستمر . فعند ما أقول « أنا أفكر » أقصد بهذا أننى « أخلق »[1] وهكذا تستبدل بكلة ديكارت « أنا أفكر إذن فأنا موجود » هذه الكلمة الجديدة « أنا أفكر إذن فأنا أخلق » ولو أخذنا على هذا الاتجاه ، طابعه الميتافيزيائى غير العلمى ، لوجدنا من بين العلماء الوضعيين أنفسهم من يؤيد هذا الاتجاه من ناحية جزئية . فريبو Ribot يذهب إلى أن الصورة الذهنية للأحداث الماضية ، صورة مخلوقة — جزئياً — فهى ليست مطابقة لنسختها الأصلية تماما[2] . وعلى هذا فالصور التذكرية ليست مجرد استعادة لإدراكات سابقة وتكرار لوجودها وإنما هى أيضاً إدراك جديد . فهى تخضع لتقلبات وتغيرات كثيرة متنوعة تبدل من صورتها الأولى إلى جانب ما فى عملية الاستعارة من عوامل انتقائية سنتحدث عنها فيما بعد . وتخرج من هذا النطاق ظاهرة « المرئى من قبل » déjà vu وكذلك الصور الارتسامية eidetic التى تعد من الحالات السوية فى فترة الطفولة ، وإن تكن حالة مرضية بالنسبة إلى المراهقين . ومثل هذه الصور تكون لأمور أدركناها من قبل ، ولكنها تصبح مرئية رؤية

(١) Philippe Fauré Frémiet: Pensée et Recréation. p. 5. Alcan.

(٢) Maladies de la Mémoire. P. 46.

حقيقية واقعية وليست رؤية تخيلية ، وذلك بأن تسقط الصور التذكرية فى المكان الخارجى للأشياء الواقعية . كتلك الفتاة [١] التى كان من عاداتها إسقاط صور الكلمات فى درس التهجى فوق راحة يدها ، ثم قراءة الحروف التخيلية بعد ذلك عند ما يطلب منها إلقاؤها . ومثل هذه الظاهرة تعد استعادة مطابقة تمام المطابقة لإدراك سابق . فلا جديد فيها ولا خلق . أما فيما يتعلق بالعمليات النفسية الأخرى : مثل الإدراك الحسى أو الإدراك العقلى الخ .. فلا شك فى أنها عمليات مركبة وليست بسيطة . ولئن كان من الممكن تحديد العوامل الأساسية — داخلية كانت أو خارجية — التى تكونها ، إلا أن هناك مستويات أخرى تخرج عن نطاق التحديد الموضوعى الدقيق لا يمكن إغفالها . فللخطة الإدراكية — مثلا — وللمعادلة الشخصية أثر كبير . إلى ما فى عملية الإدراك نفسها من عنصر انتقائى . « فكل امرئ يدرك بحسب مقوماته هو و بحسب تأثير اللحظة الإدراكية. فالرسام، والرجل الرياضى والتاجر والشخص الذى لا اتجاه له ، يرى كل منهم نفس « الحصان » بطريقة مختلفة . والصفات التى يهتم بها أحدهم ، يغفلها الآخر [٢] غير أننا لو سلمنا بأن فى جميع العمليات النفسية عناصر مخلوقة، فإنه ليس فى الإمكان القول بأن جميع هذه العمليات خلاقة أى أن الخلق ليس طابعها الأصيل . و بهذا نرجع الخلق إلى تلك الملكة التى ذكرناها من قبل وهى « التخيل الإبداعى » . ولكن ما حدود هذا الخلق ؟ وما معناه ؟

كل خلق نفسى — مهما كان ضئيلا — ذو طابع تنظيمى [٣] فهو من ثم مركب والصور هى المواد الأولية للخلق . ولما كانت الصور تبسيطاً للمعطيات الشعورية وتتوقف طبيعتها على طبيعة الإدراكات السابقة [٤] كان من الخطأ اعتبارها وقائع منعزلة . فهى بالتالى تركيبات ، عرضة لأنواع دائمة من التغير والتشكل والإضافة والتآكل . إنها تتغير « شأنها فى ذلك شأن كل شىء حى » واستعادة هذه

(١) Downey: Creative Imagination. P. 23. New York 1929. (٢) Ribot: Imagination Créatrice. p. 14. (٣) Traité de Psych. chap. VI. p. 427.
(٤) Ribot: Im. Cr. p. 14 p. 16.

الصور يكون فى شكل ارتباطات جديدة كل الجدة . فالخلق — من ثم — ليس مجرد إعادة « ترتيب لعناصر الحياة العقلية — كما يقول راى Rey — أو تنظيم جديد لهذه العناصر؛ بل إنه — نتيجة للتعديلات والتغييرات التى تخضع لها هذه العناصر — يعد خلقاً حقيقياً لعناصر جديدة لتلك الحياة[١] . هناك إذن أمران غاية فى الأهمية أولهما هو تلك التعديلات والتغيرات التى تحدث لعناصر الحياة العقلية ، وثانيهما تلك الارتباطات الجديدة كل الجدة التى تتكون بها هذه العناصر . لقد استطاع Lowes فى كتابه « الطريق إلى اكسانادو[٢] » الذى درس فيه قطعة الشاعر الانجليزى كولردج المشهورة ، أن يتتبع العناصر الأولية لعملية الخلق وذلك بالرجوع إلى مذكرات الشاعر وإلى جميع الكتب التى سبق له قراءتها[٣] . لاشك أن العناصر موجودة ولكن الصورة التى أعيدت بها إلى الحياة مرة ثانية صورة جديدة كل الجدة. وحتى العناصر نفسها ليست موجودة بحالتها الأولى بل تعرضت لكثير من عوامل التغير والتبدل والتحوير . تلك هى حدود الخلق النفسى . فما هى المراحل التى تجتازها عملية الخلق نفسها ، وما هى العوامل الفعالة فى هذه العملية ؟ والسؤال الثانى متوقف على الإجابة على السؤال الأول .

مراحل عملية الخلق : يختلف أسلوب الخلق لدى كثير من الناس : فبعضهم يصل إلى تركيباته الخلاقة بعد تفكير مضنى متدرج . والبعض الآخر يصل إليها دفعة واحدة، ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يحقق التفاصيل . الإعداد — فى النوع الأول — يسبق الخلق ، ويتبعه فى النوع الثانى . النوع الأول ينتقل من التفاصيل إلى الكل والنوع الثانى من الكل إلى التفاصيل[٤] . ومن النوع الأول داروين ، ومن النوع الثانى ولاس وشوبان . فشوبان — كما تقول عنه جورج صاند — « كان الخلق بالنسبة إليه تلقائيا ، معجزاً ، يجده دون أن يبحث عنه ، ودون أن يتوقعه ، وكان يأتى

---

(١) Traité de Psych. Dumas. p. 427.

(٢) Lowes: Road to Xanadu.

(٣) Downey: Creative Imagination p. 161

(٤) Downey: Ibid. p. 159

كاملا ، مفاجئاً ، جليلا »[١] وهذه السمات التى تعزوها « صاند » إلى عملية الخلق بالنسبة إلى شوبان ، نكاد نجدها فى جميع صور الخلق بدرجات متفاوتة ؛ بل إن التلقائية طابع أساسى يميز جميع صور الخلق . وكثير من عمليات الخلق تتم كاملة والفنان فى حالة عدم وعى كامل بها . . . كأن تتم فى النوم وذلك مثل قصيدة « كوبلا خان » Kubla Khan التى أتمها كولردج وهو نائم ، وقصيدة « المرأة تتكلم »[٢] للشاعر ماسفيلد الذى استيقظ من نومه لينقلها من صورتها التى نقشت فى مخيلته أثناء النوم . وكثير من الفنانين يحدثوننا عن أنهم لا دخل لهم إطلاقاً فى منتجاتهم الفنية بل يتلقفونها من مصادر مجهولة . فهذا ألفرد دى موسيه يقول إن « المرء لا يعمل وإنما ينصت » فكأن الخلق لا يتطلب منه جهداً وما عليه إلا أن ينصت إلى الهاتف الخفى الذى يعمل له . وهذا لامرتين سأل صديقاً له يوماً من الأيام « ما تفعل واضعاً راسك هكذا بين يديك ؟ » فأجابه الصديق : « أفكر » فقال لامرتين : « هذا أمر عجيب ! . . أما بالنسبة إلىّ ، فإنى لا أفكر أبداً . وإنما أفكارى تفكر لى ! » وهذا ثانسنت ڤان جوج — الرسام الهولندى المشهور يقول « إنهم يعتقدون أنى أتخيل . . . هذا غير صحيح . . . إننى أتذكر[٣] » فكأن عملية الخلق بالنسبة إليه ليست غير عملية تذكر . ولو انتقلنا من المجال الفنى إلى المجال الفلسفى والعلمى لوجدنا نفس هذا الطابع التلقائى المميز لعملية الخلق. فهذا برتراند رسل Bertrand Russel العالم الرياضى الفيلسوف يجيب على سؤال متعلق بمرحلة الكشف العلمى بالنسبة إليه فيقول «فى كل عمل خلاق قمت به . . كانت تواجهنى أولا . . مشكلة . . لغز محير . ثم تأتى مرحلة من التطبيق المركز الإرادى ، تتضمن جهداً كبيراً . وبعد هذا تمر فترة خالية من التفكير الواعى . وأخيراً : الحل . وهذه المرحلة الأخيرة كانت تأتى فى العادة فجاءة » وهذا السير فلندرز بترى J. Flinders Petrie العالم فى الآثار المصرية يوضح نفس النقط التى قال بها رسل « إن عملى تاريخى فى غالبيته . ولم أحاول

(١) Ribot : p. 44.

(٢) المرجع السابق ذكره Downey: Ibid. p. 169.

(٣) Irving Stone :Lust for life. Pocket Book edition: 1946. p. 277.

قط أن أبت — ارتجالا — فى مشكلة من المشاكل . وإنما أحشد المواد . وأضع المشكلة فى صيغة محدودة ما أمكن ، ثم أتركها جانباً إن لم يتضح لى حل ، ومن وقت لآخر ، أقوم بتصفحها لكى أجدد من ذاكرتى وأقويها . وبعد انتظار أيام ، أو سنوات ، أحس فجاءة بشعور يدفعنى إلى تصفحها مرة أخرى ؛ ثم يجرى كل شىء بعد ذلك فى يسر وهوادة . ويكون فى مقدورى أن أكتب بلا جهد . . . »[١]

ولا تبين لنا هذه الأمثلة التى سقناها مراحل عملية الخلق بوضوح وإن كشفت لنا عن بعض الخصائص الجوهرية لها . ولقد قام C Patrick بدراسة لعملية التفكير الخلاق بين عدد من الفنانين[٢] ونشر هذه الدراسة بعنوان « التفكير الخلاق لدى الفنانين » فى مجلة علم النفس الأمريكية ١٩٣٧ [الجزء الرابع من ص ٣٥ — ٧٣] وكان يجعل الفنانين يخططون صورهم وهم يعبرون عن أفكارهم بصوت مرتفع ، إلى جانب أنه كان يسألهم أسئلة تتعلق بتطبيقاتهم المعتادة . ولقد استخدم Patrick لهذا الغرض ٥٠ فناناً محترفاً و ٥٠ فناناً مبتدئاً تنقصهم المرانة . وكشفت التقارير عن أربع مراحل للتفكير الخلاق هى : الإعداد — الحضانة — التنوير — التحقيق . ولقد حدد جراهام ولاس[٣] هذه المراحل كالآتى : (١) الإعداد : وتنسب إلى دراسة المشكلة فى مظاهرها الجوهرية والنظر فى مشاكل مماثلة لها وفى حلولها . (٢) الحضانة : بعد الخطوة الأولى ، يدع المفكر المشكلة جانباً . ويترك النشاط العقلى اللاشعورى يعمل عمله فى حل المشكلة . (٣) التنوير : وهذه المرحلة ترجع إلى ظهور ما يسميه ولاس « بالفكرة الصالحة » التى تأتى من مصدر مجهول ويكون المفكر فى حالة توقع لبزوغ الحل المطلوب . (٤) التحقيق : عندما تظهر « الفكرة الصالحة » ، يختبرها المفكر على ضوء الحقائق المعروفة .

الواقع أننا لا نستفيد كثيراً من هذه المراحل التى يعرضها ولاس ، فيما يتعلق

---

(١) Hepner: Psychology applied to life and work. p. 406.

(٢) Ibid: هامش ص ٤٠٧

(٣) Graham Wallas: The Art of Though. 1926

فى Hepner المرجع المذكور من قبل p. 404.

بمقومات عملية الخلق نفسها . إذ أنها ليست غير الأشكال الخارجية فحسب للعملية ؛ ولا بد لنا من تفهم العوامل الداخلية الفعالة لها . والشروط اللازم توافرها من أجل تحقق عملية الخلق .

العوامل الفعالة فى عملية الخلق النفسى : يقسمها ريبو Ribot ثلاثة أقسام : (١) عوامل عقلية (٢) عوامل انفعالية (٣) عوامل لاشعورية مضيفاً إلى هذا التقسيم الثلاثى مبدأ الوحدة الذى يربط بين العوامل المختلفة . ولا يتفق راى Rey مع ريبو على تسميتها بالعوامل ويذهب إلى تسميتها بالشروط الملائمة . واختلافه عن ريبو — كما يقول [١] — ليس مجرد اختلاف لفظى . وإنما اختلاف ناشىء عن طبيعة فهميهما لمعنى الخلق . وهذا ما سنعرض له فيما بعد . إلى جانب أن Rey يضيف إلى هذه العوامل الثلاثة التى يعرض لها Ribot شروطاً أخرى وجد من الضرورى عدم إغفالها لما لها من تأثير فى عملية الخلق سنبدأ إذن بعرض هذه العوامل الفعالة أو الشروط الملائمة لعملية الخلق .

(١) العوامل العقلية : لتأثير النشاط العقلى فى عملية الخلق مظهران : الأول هو التحليل فيما يتضمنه من انتباه انتقائى أو تجريد . . إلخ والثانى هو التركيب بما يتضمنه من تداع للأفكار أو حكم أو برهنة . . إلخ . والتحليل المقصود هنا نوع من الانتقاء الغائى الذى يستهدف غرضاً بعينه . « فالنفس تعزل بعض التفاصيل و بعض الأشكال و بعض الوسائل ، وهى على وعى بين بالغاية التى تستهدفها » [٢] ؛ لا مجرد التحليل إلى عناصر بغرض الكشف عن هذه العناصر . والواقع أن التحليل — على هذا النحو — مصاحب للحياة العقلية فى كل مظاهرها بل هو — كما يقول راى Rey « وظيفة عامة للحياة النفسية » [٣] . وله صور مركبة معقدة لا مجال للتحدث عنها هنا أما التركيب فمسألة خاض فيها الباحثون كثيراً وتعرضت لدراسات واسعة بفضل الدراسة الارتباطية . ولكن لا يهمنا من التركيب هنا إلا هذه الناحية الضيقة

(١) Traité de Psych. السابق ذكره p. 437

(٢) Ibid. p. 442.

(٣) Ibid 443

« ما هى صور التركيبات التى تقدم لنا ارتباطات جديدة وبأى التأثيرات تتكون ؟ »[١] وهذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه إلا مع بقية العوامل جميعاً من عقلية وانفعالية ولاشعورية متضامنة . إذ أننا نلاحظ من هذا السؤال أننا نقتصر على الارتباطات الجديدة وهذا ما تفسره جميع العوامل . إلا أن ريبو يذهب إلى القول بأن هناك عنصراً يعد جوهرياً — بالنسبة إلى عملية الخلق — فى المجال الذهنى هو ملكة التفكير بالتمثيل Analogie والتمثيل[٢] — فيما يذهب ريبو — نوع من المشابهة فالمشابهة جنس والتمثيل نوعها . وهو أداة لا حد لها للخلق . ويستند التمثيل بين شيئين إما إلى كمية الصفات المقارنة بينها أو إلى كيفها أو قيمتها أو يستند إلى ما يسمى بإسقاط الحد الأوسط . فالمماثلة بين ا ب حـ ء هـ وبين س ص ا ر ع مماثلة قائمة على الصفة المشتركة ا . وبين س ص ا ر ع وبين ك ى ع ر ف على الصفة المشتركة ع . وأخيراً هناك مماثلة تقام بين ا ب حـ ء هـ ك ى ع ر ف بدون أى سبب آخر غير المماثلة المشتركة مع س ص ا ر ع[٣] . وهذا التمثيل بصوره الثلاث يؤدى إلى تجميعات وارتباطات جديدة كل الجدة وإلى ابتكارات أصيلة للغاية . ولو أخذنا المذاهب الميتا فيزيائية مثالا على ما نذهب اليه لوجدنا المصداق على ما نقول . فالميتافيزياء ليست إلا منهجاً تمثيلياً للتفكير بمعنى أنها « تتخذ تصورات مستخلصة من شكل بعينه من أشكال التجربة أو علاقة ما فى التجربة ، وتمتد بها إما من أجل القول بشىء بصدد طبيعة « الحقيقة » أو من أجل افتراض طريقة ممكنة للتوفيق أو الربط بين تجارب أخرى ذات أشكال تختلف عن تلك التى استخلص التصور منها فى الأصل »[٤] وله أشكال متعددة فى المذاهب الميتافيزيائية لا نجد محلا لعرضها هنا . غير أن ريبو يرد الأنواع المختلفة للتمثيل إلى طرازين رئيسين الأول التشخيص والثانى التحويل

ا — التشخيص والتشخيص عملية انتقالية — كما يقول ريبو تنتقل منا إلى الأشياء ؛ وتقوم على افتراض « أن فى كل ما يعطينا علامة

(١) المرجع السابق ذكره Ribot p. 19. (٢) Ibid p. 22
(٣) Ibid p. 23 (٤) The nature of metaphysical thinking: D. Emmet: 1945. p. 5

على الحياة ، وفى كل ما ليس بحى ، رغبات وعواطف و إرادات مماثلة لما لنا من رغبات وعواطف و إرادات ، وهى تعمل — مثلنا — هادفة إلى أغراض بعينها .»[١] وكلنا اختبرنا هذه الفترة « الحيوية الكونية » التى نجدها واضحة عند الأطفال والبدائيين وهى المعين الذى لا ينضب للأساطير والخرافات وعدد كبير من أشكال الخلق الفنى ، بل نستطيع أن نقول — مطمئنين — إن شيئاً من الأشياء المخلوقة أو المبتكرة لا تخرج عن أن تكون Ex analogia humanis سواء أكانت فنية أم عملية أم فلسفية . وقد يبدو هذا القول مقبولاً بالنسبة إلى صور الخلق الفنى أو الفلسفى أما العلمى فقد يبدو مستغرباً . ولكن ها هى ذى الفيزياء المعاصرة بعد ماوصلت إليه من نتائج فى المعرفة الوضعية التجريبية ، تدرك أنها ما تزال تبحث فى طبيعة الظلال الإنسانية الملقاة على صفحة المجهول الممتد أمامها . هذا أدنجتون العالم الفلكى المشهور يقول[٢] « لقد وجدنا أنه حيثما ازداد تقدم العلم ، لم يكتسب العقل من الطبيعة إلا ما كان قد وضعه فيها من قبل . . . ولقد عثرنا على آثار أقدام غريبة على ضفاف المجهول . فاستنجدنا بالنظريات العميقة ، الواحدة تلو الأخرى ، لتفسير هذا الذى عثرنا عليه . وأخيراً نجحنا فى تركيب المخلوق الذى ترك آثار أقدامه . وها هوذا ! إنها آثار أقدامنا » .

ب — أما التحويل : فهو عملية عامة ذات أشكال متعددة ، ولا تنتقل من الذات المفكرة إلى الموضوعات « كما فى حالة التشخيص » و إنما من موضوع إلى آخر ، ومن شىء إلى شىء ؛ وترتكز جزئياً على النواحى المتشابهة فى كليهما[٣] . ولا شك أن هناك أسساً نفسية تستند إليها هذه المشابهة كما أن هناك مستويات خارجية أيضاً لها تأثيرها ، ولسنا نثير هذه المشكلة لكى نجيب عليها و إنما لكى نوضح أن جميع العوامل العقلية ليست عوامل منعزلة تعمل على انفراد بل إنها تستند إلى عوامل أخرى من

---

(١) Ribot: Ibid p. 23.

(٢) A.S. Eddington: Space, Time and Gravitation 1920. pp. 200-201

(٣) Ribot المرجع السابق ذكره p. 24

غير طبيعتها ؛ ولا يمكن تفهمها إلا فى نطاق النشاط النفسى العام كوحدة تنظيمية متكاملة .

٢ — العوامل الانفعالية : جميع صور الخلق تتضمن عناصر وجدانية بدونها يستحيل كل خلق[١] . ولتأثير الحياة الوجدانية فى الخلق مظهران رئيسيان : (ا) إما عن طريق الوقائع الوجدانية التى تمتزج بكل عمل ابتكارى . (ب) وإما عن طريق الميول التى توجد فى أصل الاتجاهات الكبرى التى يمكن أن يخوضها النشاط الابتكارى[٢] . تأثير الحياة الوجدانية على الابتكار تأثير لاحد له ، إذ تتدخل فى مجال الابتكار بأكمله و بدون أيما تقييد[٣] . هذا إلى جانب أن للحياة الوجدانية القدرة على استعادة صور جميع الأحداث الماضية . ولا تعود إلى الحياة من هذه الصور إلا أشدها إثارة أو استمالة من الأخرى . وهذا ما يسمى باسم « قانون الاهتمام » الذى هو فرع من قانون « إعادة التكامل » و إن كان القانون الأول ذا فائده فى عملية الخلق بعكس القانون الثانى الذى قد يعد عقبة دون الخلق ؛ كما تكون الذاكرة الغنية سداً يحول دون الخلق . إذ أن الخلق أو الابتكار — كما يقول راى Rey — ليس وظيفة لاتساع الحياة العقلية[٤] وامتداد أفقها و إنما لعمقها .

لكى يتم الخلق إذن لابد من توافر حاجة أو دافع أو ميل أو حافز أو انفعال ، أو عاطفة ما . . . أو أى عنصر آخر من عناصر الحياة الوجدانية ، من أجل استثارة صور ذات ارتباطات معينة . وما قلناه بصدد العناصر العقلية نعود إلى ذكره بصدد عناصر الحياة الوجدانية . وهو أن هذه العناصر مهما كانت قيمتها فى مجال الخلق إلا أنها لا تعمل على انفراد ، و إنها فى نطاق النشاط النفسى العام .

٣ — العامل اللاشعورى : لا يوجد خلق حيث لا توجد تلقائية . وهذى التلقائية هى التى توحى بالعامل اللاشعورى . و يسمى هذا العامل بالإلهام ، والتلقائية

---

(١) Ibid 27. (٢) Traité de Psych. p. 448.
(٣) Ribot 26. المرجع السابق ذكره (٤) Traité de Psych p. 449

—أو عنصر المفاجأة — هى الطابع الجوهرى للإلهام . والواقع أن هذه التلقائية، ظاهرية أكثر منها تلقائية حقيقية . إذ أن هناك أمداً طويلا من الإعداد الشاق والجهود المستمرة ، سبق هذه اللحظة التلقائية المفاجئة بل هو شرط لهـا . ويذهب ريبو Ribot إلى أن للإلهام — إلى جانب عنصر التلقائية والمفاجأة — صفة أخرى تميزه هى « اللاشخصية » وهذه الصفة « تكشف عن قوة عالية على الفرد الواعى ، غريبة عنه ، وإن تكن تعمل به»[١] غير أن هذه الصفة اللاشخصية التى للإلهام لا بد أن تستتبع بعد ذلك بلحظة يتملك فيها الشعور الواعى عناصر الإلهام اللاشخصى . ولا يتم هذا إلا بتوافر جهد طويل شاق، ومن هنا قيل « إن العبقرية صبر طويل » فسيطرة الوعى على الانتاج اللاشعورى إذن ، أمر لابد منه بالنسبة لـكل رجل خلاق[٢] ولهذا ذهبت الآنسة Cowell إلى تعريف الشاعر — تعريفاً علمياً — بأنه « رجل ذو حساسية غير عادية وشخصية لاشعورية إيجابية تغذى وتتغذى بوعى لا يقاوم»[٣]

ويظهر أثر اللاشعور واضحاً فى عمليات الخلق التى تحدث أثناء النوم كقصيدتى كولردج وماسفيلد ، ولما كانت الأحلام نتيجة نشاط لاشعورى فى الغالب — معتبرين أن اللاشعور هو القاعدة التى تستند إليها كل من الأحلام وأحلام اليقظة ارتبط الحلم بعملية الخلق ، بل لقب[٤] جميع المبدعين العظام بالحالمين سواء كانوا شعراء أو فلاسفة أو علماء .

٤ — التأثير العضوى والوراثة : من الصعب تحديد العوامل العضوية المختلفة للخلق . فهناك بعض المخترعين والفنانين يتسمون بصفات جسدية معينة ، من الخطأ تعميمها وجعلها أساساً أو شرطاً للعبقرية . والدراسات من هذه الناحية تكشف عن تناقض لا يمكن معه أن نتأدى إلى تحديد علمى دقيق . وحتى الدراسات التشريحية الفسيولوجية للعبقرية[٥] دراسات تستحق منا موقف الحذر ، وخاصة ونحن نعرف

(١) Ribot: Imag. Créat. p. 44. (٢) Downey: Creative Imag. P. 166.
(٣) Creative Unconscious: Hanns Sachs. p. 11. (٤) Ibid p. 167.
(٥) Traité de Psych. Dumas. p. 456.

أن ملكة الخلق النفسى ليست ذات وظيفة أولية بسيطة نسبياً كالإحساسات البصرية أو السمعية مثلا ؛ وليس لها بالتالى مركز معين فى الدماغ بل ونخشى أن تتأدى بنا الدراسة التشريحية الفسيولوجية إلى اعتبار العبقرية اعتباراً مرضياً ، إلى جانب أن المقام لايتسع لمناقشة هذه الناحية .

٥ — تأثير البيئة الاجتماعية : للبيئة الاجتماعية أثرها فى العناصر النفسية للنفس الإنسانية على وجه العموم ؛ ومن هذه الناحية فحسب يمكن أن نتحدث عن تأثيرها غير المباشر فى عملية الخلق. ولا يمكن أن يحدد هذا التأثير إلا من هذه الناحية وحدها. أما تأثير البيئة المباشر على عملية الخلق نفسها ، فلا يؤيده ما يذهب إليه راى Rey من أن كثيراً من الاكتشافات العلمية الكبرى قد وجدت فى عصر واحد تقريباً بين علماء لم تكن بينهم أى صلة ، ولا يؤيده أيضاً وجود مدارس فنية أو أدبية أو علمية . . . الواقع أن تأثير البيئة الاجتماعية المباشر على عملية الخلق ، قد يكون فى الصورة التى يتخذها هذا الخلق. أى أن تأثيرها مقصور على الشكل الخارجى فحسب . فللخلق الفنى صور متعددة ، ولكن لكل صورة من هذه الصور ، أشكالا تعبيرية متعددة مختلفة هى الأساس للاختلاف بين مدارس الفن .

٦ — الأصالة الفردية : إلى جانب هذه العوامل التى ذكرناها ، نجد أن الخلق النفسى ، ظاهرة تترك عليها الفردية — بعمق — طابعها الخاص بها ، فالأصالة الفردية عامل فعال فى الخلق . والمشكلة الآن تتلخص فى السؤال الآتى :

ما هى هذه الأصالة الفردية ؟ كل ما نستطيع قوله أنها الصفة العليا للشخصية السيكلوجية بكل ما فيها من مقومات .

* * *

لاحظنا فى عرضنا للعوامل الفعالة فى عملية الخلق ، أنها لا تستطيع أن تقوم بذاتها ، بل لا بد من تضافرها جميعاً لتحقيق الخلق المنشود . . . إذ أن للخلق طابعاً عضوياً يفترض دائماً مبدأ للوحدة والتركيب . وعلى هذا فالعوامل التى عرضنا لها لا تعمل

على انفراد وليس لها من قيمة إلا باتحادها بينها و بين بعض اتحاداً تركيبياً ليس فى المقدور تحليله إلى عناصره . ولقد قلنا فى بدء حديثنا عن تلك العوامل ، إن هناك اختلافاً فى تسميتها بين ريبو Ribot وراى Rey . فالأول يسميها بالعوامل الفعالة والثانى بالشروط الملائمة . وذهبنا إلى أن التفرقة فى التسمية ليست تفرقة لفظية و إنما تعزى إلى اختلافهما فى فهم مركب الخلق . فراى Rey يذهب إلى أن الخلق أو الابتكار[1] ليس مجرد ارتباط بسيط أو مجرد إعادة ترتيب لعناصر ، و إنما هو أمر أكثر عمقاً من هذا بكثير . هو تركيبات شبيهة بالعضوية تتدخل فيها الشخصية السيكلوجية بطريقة مستمرة ؛ ولا سبيل إلى تحليلها إلى عناصرها أو عواملها الفعالة . وريبو Ribot على الرغم من اعتباره أن كل خلق تخيلى إنما هو ذو طابع عضوى إلا أنه يذهب إلى إمكان تحليله إلى عناصره المكونة له ، إلى جانب افتراضه مبدأ للوحدة يربط بين هذه العناصر. وفى هذه النقطة وحدها يختلف كل منها عن الآخر.

ولقد تكلمنا حتى الآن عن العوامل الثلاثة الفعالة التى قال بها ريبو و بقى أن نعرض لمبدأ الوحدة الذى هو الرابط بين هذه العوامل الثلاثة . ولهذا المبدأ صور ثلاث : ١ — الأولى يسميها ريبو بالصورة المتقلبة : وتتمثل فيما يخلقه الحالمون الذين يبنون قصوراً فى الهواء ؛ وفى اختراعات الأطفال التى تخضع لتقلبات الصدفة أو للأهواء الشخصية والصورة الثانية يسميها ريبو بالوحدة العضوية : ويهمنا فى هذا النوع الثانى « عنصر الانتباه » الذى يعتبر — فى نظر ريبو — مبدأ الوحدة الحقيقى إذ أنه يكون بمثابة « مركز ثابت للجذب يجمع حول الفكرة الرئيسية للصور ، ارتباطات وأحكاماً وميولا وجهوداً إرادية[2] » .

والواقع أن الانتباه ـ أو ما يمكن أن نسميه نحن بالنشاط الذهنى عامة ـ يلعب دوراً كبيراً . وهذا الانتباه بحسب تسمية « ريبو » إما تلقائى طبيعى ، لا يتطلب جهداً ، و يستند فحسب إلى ما يثيره فينا شىء من الأشياء من اهتمام ؛ و إما إرادى ،

(١) Traité de Psych. p. 437—438 (٢) Ribot : Imag. Cr. p. 70

مفتعل ، يتطلب جهداً وعملا . وهاتان الناحيتان سبق أن عرضنا لهما فى مراحل الخلق والانتقال من اللاشعورية التلقائيـة إلى مستوى الشعور الذى يستلزم جهداً . وتتضح أهميـة « الانتباه » كعامل ثبات ومبدأ وحدة ممـا نعرفه من تنوع الحالات النفسية وثرائها وما تضمه من عوامل مختلفة وعناصر متباينة وما يحدث لها من تفاعل وتضافر أو تنافر ومقاومة . نستطيع أن نعتبر الانتباه عامل ثبات بالنسبة إلى هذه الأنحاء والتيارات المختلفة فى الشخصية السيكلوجية . والصورة الثالثة من صور مبدأ الوحدة صورة مرضية تقريباً تظهر فى حالة تسلط فكرة ثابتة على مجرى الشعور العام .

الأسس النفسية للخلق : مما تقدم يتبين لنا أن الخلق ليس إلا استخدام جميع وظائف وعمليات وعناصر الحياة النفسية استخداماً يرتفع بها جميعاً إلى وحدة تنظيمية متكاملة . فعملية الخلق أو الابتكار ـ على حد تعبير راى Rey « هى الحياة العقلية نفسها »[1] إلا أنه يفرق بين شكلين جوهريين لهذه الحياة : فى الشكل الأول تكون الحياة سلبية بحتة ، وليست غير أداة للبقاء والتكرار والعادات . إلا أنها فى الشكل الثانى تحاول أن تتفوق على ذاتها وتتضخم وتتحول لكى تصبح شيئاً جديداً بالنسبة إلى ما كانت عليه من قبل[2] . ولقد عرضنا من قبل إلى أن الخلق فى جوهره وظيفة تركيبية للحياة النفسية بأكملها ، وإذا كنا قد رأينا أن الخلق يستخدم — كمواد له — جميع عناصر الحياة النفسية ومقوماتها ، بل يكون مشروطاً بها ، أمكننا ، مطمئنين ، أن ننتهى مع سيای Séailles إلى أن قدرة الخلق أو « العبقرية ليست إلا الصورة العليا لحياة النفس » وأن قوانين العبقرية ليست — كما وضح ذلك فى كتابه « العبقرية فى الفن » — إلا القوانين العامة للحياة النفسية . ومن هذا يتضح لنا سخف القول بأن للقدرة على الخلق أساساً واحداً ترتكز عليه أى القول « بغريزة للخلق » فهناك — كما يقول ريبو Ribot — « حاجات وميول ورغبات مشتركة بين جميع الناس فى مقدورها

(١) Traité de Psych. p. 641 (٢) Ibid.

بالنسبة إلى فرد معين ولحظة معينه أن تؤثر فى فعل مبدع. ولكن لا توجد حالة نفسية خاصة يجوز أن تكون غريزة خلاقة . . . ماذا تكون — حقاً ؟ كل غريزة لها هدفها الخاص: الجوع ، العطش ، الغريزة الجنسية ، الغرائز النوعية فى النحلة والنملة وكلب البحر ، تتألف جميعاً من مجموعة من الحركات المكيفة من أجل غاية محددة لا تتغير أبداً . والآن : ما هى تلك الغريزة الخلاقة على وجه العموم ، والتى يمكن — على سبيل الفرض — أن تنتج أوبرا أو آلة أو نظرية ميتافيزيائية أو نظاماً مالياً أو خطة كفاح عسكرى وهلم جرا . إنها محض وهم . ليس للعبقرية الابتكارية من مصدر واحد وإنما مصادر »[١] ولكن الدكتور هيرش Hirch بحسب مذهبه العام[٢] لايتفق مع هذا الرأى ويذهب إلى أن هناك « نشاطاً خلاقاً عاماً تحت كل ابتكار ، عملية عادية نفسية خلاقة هى الدليل لجميع الخطوط المخصصة للعبقرية ، حافزاً فطرياً يبعث العبقرى على الخلق بدافع لايمكن مقاومته ، لا لأنه يرغب فى هذا بل لأن هذا من المحتم عليه»[٣] وهو يسمى غريزة الإنسان — وإن لم يرتض الغريزة لقباً لها — بالذكاء الخلاق الذى هو الحافز الأول المسئول عن جميع صور الخلق أو الابتكار . ومقدماتنا فى هذا البحث تتأدى بنا إلى أن الخلق ليس له أساس واحد وإنما يرجع أولا إلى الحاجات والميول والأهواء والرغبات ثم ثانياً إلى إمكان استعارة الصور التى تتجمع فى ارتباطات جديدة[٤] استعادة تلقائية ، وهذه تخضع لعوامل أو شروط متعددة .

تعد الحاجات والرغبات والأهواء والميول إلخ... أسسا لعمليات الخلق ولكل واحد منها شكل معين من أشكال الخلق يختلف باختلاف المادة التى يتحدد بها الخلق . فالحاجة إلى التوسع أو الامتداد سواء أكان فرديا أم اجتماعياً — تبعث على الابتكارات الحربية والتجارية والصناعية مثلا والحاجة إلى المعرفة والتفسير تخلق الأساطير[٥] والديانات

---

(١) Ribot: Imag. Créat. p. 36. (٢) فى كتابه : Genius and Creative Intelligence

(٣) Ibid p. 305. (٤) Ribot: Imag. Créat. p. 261

(٥) راجع فى هذا العدد مقال أحمد أبو زيد : التحليل النفسى للأساطير ص ٢٣٣ ـ ٢٥١

والمذاهب الفلسفية والفروض العلمية والغريزة الجنسية معين لا ينضب لكثير من صور الخلق ، وخاصة الفنى منها . ولقد قلنا إن أشكال الخلق تختلف باختلاف المادة التى يتحدد بها الخلق فنجد مثلا اللغة التى تعد مادة للتعبير عن صور الخلق فى المذاهب الأصلية فى الفلسفة وتعاليم الأديان الكبرى وفى الشعر والدراما ومختلف صور الأدب ، وكذلك المواد التى تستخدم فى النحت والرسم والبناء ؛ والرموز المستخدمة فى المنطق والرياضيات والموسيقى ؛ والأدوات والآلات التى تستخدم فى الابتكارات والمكتشفات العلمية ، ثم إلى جانب هذه نجد الجسم الإنسانى نفسه الذى يعد مادة تتحدد بها صور الخلق فى حالة التمثيل والرقص الجمالى ؛ وكذلك الأجسام الإنسانية متكتلة ، وجماعات الأفراد التى تستخدم كمادة للخلق فى حالة العبقرية العسكرية أوالعبقرية السياسية[١] .

كل خلق إذن — أوابتكار — إنه هونتيجة لحاجة أو دافع ما من دوافع النفس، يهدف إلى غاية خاصة به ، ويتخذ لتحققه خارجياً شكلا تلقائياً مفاجئاً فى مظهره ، وإن تضمن إعداداً داخلياً لاشعوريا . وتفسير فرويد للخلق[٢] — الذى يماثل تفسيره للأحلام — باعتباره نتيجةلرغبات غير محققة كبتت من جراء حواجز اجتماعية معينة ، تفسير لا ينطبق إلا على شكل محدود ضيق من أشكال الخلق النفسى . ففى مقدورنا مثلا أن نفسر قصيدة « القنبرة » لشيلى على هذا الأساس ، ولكن كيف يتأتى لنا تفسير التعبيرات الإبداعية الكبرى فى العلم والفلسفة والحياة العملية . هذا إلى جانب أن الخلق سيكون مستحيلا ومنعدماً فى عالم سوى لا كبت فيه ولا فشل ولا حواجز اجتماعية . ولكننا قد رأينا فيما تقدم أن الخلق فى أى صورة من صوره إنما هو مرتبة عليا للحياة النفسية بأكملها تتضافر فيها جميع عناصر تلك الحياة.فهو إذن عملية سوية. والعبقرية بالتالى ليست مرضاً نفسياً أو عصابا بل ظاهرة نسيج وحدها sui generis على حد تعبير الدكتور Hirsch

* * *

(١) Kirsch: Genius and creative intelligence p. 233.

(٢) راجع فى هذا العدد مقال مصطفى اسماعيل سويف: التحليل النفسى والفنان ص٢٨٢ — ٣٠٢

مما تقدم يتبين لنا أن دراسة عملية الخلق النفسى، تستلزم الإلمام بكل عناصر الحياة النفسية ؛ لأنها — كما قلنا من قبل — الصورة العليا للحياة النفسية . وجميع صور الخلق أيا كانت ، بسيطة أو معقدة ، ليست غير توتر نفسى عام تتضافر فيه جميع مظاهر النشاط النفسى فى شكل تنظيمى تركيبى . والاختلاف بين أشكال الخلق المتنوعة يعزى إلى الاختلاف فى الدوافع العامة — من فردية أو اجتماعية — ثم إلى الاختلاف فى المواد التى تتخذ لتحقيق الخلق تحقيقاً خارجياً . وتجتاز عملية الخلق مرحلتين أساسيتين : مرحلة تلقائية ومرحلة شعورية ؛ وغالباً ما تكون المرحلة الثانية هى المرحلة التلقائية ولكن على الرغم من عنصر المفاجأة الذى تتسم به هذه المرحلة الأخيرة، إلا أنها مفاجأة ظاهرية فحسب ؛ إذ هى ثمرة لإعداد طويل فى اللاشعور .

Résumé

MAHMOUD A. EL-'ALEM : LES BASES PSYCHOLOGIQUES DE LA CRÉATION

Après avoir discuté l'explication associationniste de la création mentale qui repose sur une nouvelle combinaison d'éléments inchangés, l'auteur insiste sur les transformations profondes subies par la vie psychologique tout entière en vue de l'élaboration et de l'achèvement de l'acte créateur. Toute création est une restructuration au sein de laquelle s'organisent et s'intègrent de nouvelles fonctions. La création est la forme la plus élevée de la vie mentale maintenue à un haut niveau de tension.